رحلة النور

قصة بقلم: أحمد الجوهري عبد الجواد

من رحم الظلماء:

استيقظ الطفل ((زكريا)) مفزوعًا من نومه على صيحات وعويل يصدر عن نساء في الدار، أخذ يبحث حواليه عن سبب لذلك فلم يدركه، لكن ألسنة النساء اللاتي امتلأت بهن الدار لا تكف عن ذكر اسم والده ((محمد))، ظل يتجوَّل بين النساء وهو يلحظهن ينظرن إليه، كان يبحث عن أمِّه وسط هذه الملاءات والأوشحة السوداء الكثيرة..أخيرًا وصل إليها، بعد لأي ومشقة، وفور أن رآها ارتمى في حضنها وأسلم نفسه إليها، وكأنها هي الأخرى كانت تنتظر حضنًا تستدفئ به من برد وركنًا تستند إليه من خور وضعف، فضمته إلى صدرها، وقبَّلته، وما لبثت أن عاودها البكاء ففاض دمعها أنهرًا، حتى أصاب صدر الصبي من ذلك بلل غطاه وغمره.

ومد ((زكريا)) يده يمسح دموع أمه وسألها: لماذا تبكي يا أماه؟ فقالت ودمعها يسابق حروفها: مات أبوك يا ((زكريا))، قد صرت يتيمًا يا ولدي، اجتمع عليك اليتم مع الفقر، لك الله تعالى يا بني، هو وحده يرعاك ويصونك في حاضر أيامك ومستقبلها.

لم يفطن الطفل الصغير إلى مقصد أمه من الكلام فسمعه والتزم الصمت.. لعله يفهم من الحال ما لم يفهمه من المقال!

دفن الوالد، وبقي الناس يعودونه هو وأمه بعد ذلك أيامًا، ثم بدأ العوَّاد مع مرور الأيام يقلُّون، حتى لم يعد أحد يأتيهم، واضطرت الأم إلى الخروج من المنزل لمباشرة العمل في أرضهم الصغيرة ورعاية مواشيهم، فقد كانت هذه مهنتهم التي فيها يعملون ومنها يتكسبون ويتقوَّتون، وما عساهم يفعلون غير ذلك في ((سنيكة)) هذه القرية الفقيرة الحال القليلة الموارد؟!

آن لها أن تسعى على ذلك اليتيم لتقيه ضرَّ الجوع وشرَّ العري وبؤس الحاجة، وكانت لصغره تصطحبه معها غالب الوقت إلى الحقل وفي الطريق، إلا ما ندر من وقت يقضيه في الكتاب عند معلم القرية يعلمه القراءة والكتابة ويحفظه شيئًا من القرآن، ووقتًا آخر يكون بين لداته من الصبيان يلعب معهم ويمرح ناسيًا لبعض الوقت يتمه وفقره كما ينسى الأطفال!

وبين هذه المواضع الثلاث كانت الأيام تسعى بزكريا وهو يسعى داخلها: الكتاب الذي تطوَّر بعد ذلك إلى حضور حلقة تدرَّس فيها بعض العلوم الشـرعية بالمسـجد لمن هم في مثل عمره وفطنته ممن ختموا القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا، والحقل، وقليل من اللهو أو مسامرة الخلان..

شبَّ ((زكريا)) وشبت معه مرارة الحرمان لم تفارقه وترعرعت معه مصاعب المعيشة لم تغادره، وكانت فترة قاسية شـديدة القسـوة، حفرت في داخله آثارها وغرسـت فيه جذورها، ونمت معه في مراحل عمره.. لكنه رغم هذا كله كان حديث القرية في شبابه كما كان كذلك في صباه وطفولته، فعن ذكائه وفطنته، وعن بديهته وهمَّته، وعن إحرازه السبق بين أقرانه في كل علم وعمل يرجى له ويوكل إليه.. يدور حديث القوم في كل نادٍ وسامر.

لم يكن لزكريا وأمه بسـبب فقرهم وعيلتهم كبير علاقة بالناس، لهذا ما كان يزورهم سـوى العم (ربيع وزوجه) وهما من جيرانهم الأدنين، وكان الزوجان الكريمان من المحسـنين.. قد رقق الله قلبيهما على الطفل وأمه فاشـتركا معها في تربيته والنفقة عليه، حتى إن ((زكريا)) كان يعتبرهما أمه وأباه...

وذات يوم كان ربيع وزوجه عند ((زكريا)) وأمه يزورانهما وجرى الحديث نحو الحلقة وبروز نجم زكريا بها، فقال العم ((ربيع)) وكان رجلًا فطنًا ذا نظر بعيد ورؤية ثاقبة مع حظٍّ من العلم:

- يا أم زكريا!

- نعم يا شيخنا ((ربيع))!

- ألا تكرمين ((زكريا)) وتتكرمين معه بكرامة العلم والفضل!

- فقالت الأم العاقلة: وما ذاك، أشِـر عليَّ وأنا طوع أمرك، ولا أحتجب عن تكرمة ما اسـتطعت ولا أمنعها عن ((زكريا)) ما قدرت، فبم تشير علينا؟

- إن زكريا قد أصاب ما عند شيوخنا جميعًا من علم، وكذلك عند من نعلمه من أهل القرى المجاورة أصاب شيئًا من علوم الشـريعة قلَّ أو كثر، ولم يبق له إلا أن يسـافر إلى القاهرة؛ ليحظى بالتعلم في الجامع الأزهر على أيدي شـيوخه الأجلاء وأساتذته الفضلاء، فهلا وهبته لله وشجعته على ذلك!

- السمع والطاعة يا سيدي، ولكن..

- لا مكان لـــــ (لكن) هذه، يا أم زكريا، اجعلي النية لله، والبقية من تساهيله وتيسيره، ارم حمولك عليه تعالى، وادعي له، وسييسر الله له كل عسير، فإن ((طالب العلم مرزوق)).

- توكلت على الله تعالى، لكن ما قول ((الشيخ زكريا))؟

- زكريا محب راغب طامع، إنما يمنعه أن يقول شيئًا من هذا حياؤه من أن يتركك ويسافر، لكني أطمئنه أنه في حين يسعى في هذا الطريق فهو في سبيل الله تعالى وأن الله سيخلفه فيك بخير، كما سيرعاه هو في سفره ويوفقه لكل خير، أم ماذا تقول يا زكريا؟!

أجاب زكريا بصوت خافت خاشع: القول ما يراه شيخي وما تقوله أمي!

- إذن توكلنا على الله، نبدأ في الإعداد لهذه الرحلة الطيبة، وعليَّ أنا أن أرتب لهذا الســفر مع بعض أحبابنا الذين يسافرون من ((الشرقية)) إلى ((القاهرة)) ليأخذوك معهم، والله الموفق!

الخطوة الأولى:

بعد أيام قليلة جاء العم ((ربيع)) مبشرًا:

- يا ((زكريا))، يا أم زكريا!

خرج الاثنان على نداءات الشيخ ((ربيع)) مرحبين به يدعوانه لدخول البيت، لكنه قال: ما جئت الساعة لضيافة، إنما أردت أن أعرفكم بأني وجدت رحلة تتجهز للسفر إلى القاهرة وعلى زكريا أن يستعد فإنهم سيرحلون في الغد، مبكرين.. قال كلمته تلك وانصرف مستأذنًا في الذهاب لأجل حيواناته التي في الحقل تنتظره لأكل ورعاية ثم عودة للبيت.

تهللت أسارير الأم وابنها، وارتفعت أياديهم إلى الله تحمده وتشكره على تيسيره القريب، وهنأت الأم ولدها وشكرت العم ربيع ثم أقبلت تنتهز كل لحظة من أجل إعداد ملابس ((زكريا)) وطعامه، من بين مخزونات الزرع والحيوانات التي يحتفظون بها في الدار.

كانت الساعات تمر سريعًا، لكن الأم النشيطة التي تدفعها فرحتها بفتح الله لولدها كانت تسابق سرعة الساعات واستطاعت أن تجهز كل ما أرادت له في سفره.

في الموعد.. قبل الفجر بساعة جاء الشيخ ((ربيع)) وزوجه إلى بيت أم زكريا ونادى الشيخ ربيع فخرج زكريا واستقبلهما وخرجت من ورائه أمه فقال الشيخ ربيع: هيا يا زكريا لم يعد وراءنا وقت ولكي ندرك فسنصلي الفجر هناك في ((أبو حماد)) على اتفاقي مع القوم، اتجه زكريا إلى حاجاته يحملها وساعده العم ربيع في رفع بعضها عليه والبعض الآخر حمله هو.. وودع الرجلان المرأتين وانطلقا.

وهناك بعد صلاة الفجر التقيا برئيس الرحلة وعرفه العم ((الشيخ ربيع)) بزكريا، وأوصاه به خيرًا، وكان الرجل من الأدب والفضل والبرِّ بمكان فقد كانت كلماته تعبر عن ذلك كله وتنمُّ عن أصل أصيل اطمأن معه زكريا على رحلته واستبشر خيرًا.

استأذن العم ربيع الرئيس وانتحى بزكريا جانبًا وأسرَّ إليه:

يا زكريا إنك الآن تمضـي في طريق النور والخير والفضـل، فإن تتقي الله تعالى فيها تكن لك نورًا وفتحًا وبركة، ويصير الله بها حياتك فرجًا بعد كربة وقوة بعد ضعف وسعة بعد ضيق، وإلا.. كان عكس ذلك تمامًا، فاعمل على رضا ربك يوفقك في نوال هدفك ويبلغك مقصودك!

استمع ((زكريا)) للكلمات وهو مطأطئ رأسه في أدب عهده عنه شيخه في حلقة الدرس ووعاه بقلب طالما تيقن أنه لا يفلت العبارة ولا الإشارة، ثم عقب قائلًا في خضوع: حاضر، أفعل إن شاء الله مستعينًا بالله.

ابتسم العم ربيع في رضـا وغبطة ثم أخرج من جيبه كيسًـا، ودسـه في يد ربيع، وهو يقول: احتفظ بمالك جيدًا وأنفق على ضـرورياتك قبل الحاجيات ولا تتطرق إلى غيرهما فإن طريقك طويل وزادنا وزادك قليل، ومتى يوسـع الله علي فلا أبخل عليك بشيء أبدًا، ثم أوصاه بوصايا المعيشة هناك وما يستلزمه مقامه من ترتيب بين الدروس والحضور على الشيوخ واغتنام الأوقات.. كل ذلك وهو يجد من تلميذه الشاب كل إصغاء وموافقة.. أخيرًا ودعه وقال: هيا قد ارتحلت القافلة أو كأن قد، ولا تخش شيئًا طوال الطريق وإن عرض شيء فكلم الرجل فإنك في أمان معه فهو صـديق قديم في حلقات العلم قد استفاد من العلم لتجارته فهو عالم في ثوب تاجر.

أخيرًا تصـافح الاثنان وتعانقا وتوادعا، ثم انضـم ((زكريا)) إلى جملة المسـافرين، في القافلة التي حطت بهم ورحلت وأسـرعت بهم وأبطأت حتى انتهى بهم المسـير بعد أربعين سـاعة تقريبًا إلى أبواب القاهرة العظيمة، وهنالك ودع ((زكريا)) الرفقة وحمل أمتعته وانطلق صوب مقصده: الأزهر.

شمعة فمصباح:

استقر بزكريا المقام في الأزهر، واستقام له التردد على حلقات علمائه، واصطفى من مجتهدي الحلقات خيرة يأنس بهم بعد الفراغ من الدروس اليومية يتسامرون ويتناقشون في أمور العلم والعبادة، وقد وجدوا هم كذلك أنسهم معه فوق ما وجد هو، فأقبل في ظل ذلك على العلم في دأب واجتهاد وانهمك في الطلب والتحصيل.

كان وقت زكريا كله للعلم إذ لم يكن له شيء يشغله، يقضي سحابة النهار يدور بين الحلقات، ويأوي في الليل إلى مكان مع رفاقه قد استأجروه للسكنى يقضي الوقت فيه بين المذاكرة والمطالعة والمناقشة وبين القيام وقراءة القرآن، مع قليل من النوم.

وقد أكرمه الله تعالى بطلاب يتنافسون فيما بينهم في العلم والعمل، فلم يجد في نفسه معهم إلا الحافز والتشجيع على الدأب والاجتهاد، ولم تخل تلك الليالي عن طرافة تنم عن جميل ما نشأوا عليه من أخلاق وما نما بينهم من ودٍّ ومحبة، كان من إخوانه هؤلاء شاب يدعى علي الأنصاري وكان يضرب به – كما يضرب بزكريا – المثل في شدة الورع والزهد والعفة والاجتهاد في العبادة وصيام النهار وقيام الليل بنصف القرآن في كل ليلة، وكان زكريا يعترف لعلي أنه يفوقه في الورع، وكان من طرائف عليٍّ أنه كان لا يشرب ماء حمله غيره، فيذهب بنفسه إلى مكان بعيد جدًّا عن السكن فيملأ إناء مائه الخاص ويشرب منه حتى يفرغ، وكان الشباب زملاؤه ومنهم زكريا يتقصدون هذا الإناء فيشربونه كله في الليل ويقولون: حتى ننظره ماذا يعمل معنا إذا عطش، فكان عليٌّ إذا انتهى من ورده في الليل جاء ليشرب فيجد الإناء فارغًا، فيبتسم راضيًا ويسكت لا يقول لنا شيئًا، وهذا من خير دليل على كرم أخلاقه.

هكذا مرَّت أيَّام زكريًّا لا تخلو من مرح خفيف بين طيَّات جدٍّ بالغ وسعي دائب لبلوغ الهدف وتحصيل المقصد أنسى ((زكريا)) كل شيء حتى أنساه فقره وعيلته الذَين كانا لا يفارقانه لحظة، حتى يأتي عليه اليوم يبيت فيه طاويًا لا يجد ما يأكله فيخرج في ستر الليل إلى الميضأة التي يغسل فيها الناس حوائجهم بالنهار، فيلتقط قشور البطيخ فيغسلها ويأكلها.. وكم حدث مثل ذلك في أيام وليال، لكن ذلك لم يكن شيئًا إلى جوار لذة العلم وما وفق له من الصحبة الكريمة التي تشاركه العلم والعبادة والفقر والحاجة.

توطدت صلة زكريا بزملائه وأكثرهم في ذلك ((عليٌّ)) فكانا لا يتفارقان في ليل أو نهار في علم أو عبادة، حتى كان يوم جاءت فيه والدة علي تزوره على عادتها في ذلك، تأتيه ببعض الطعام وتذهب بثيابه فتغسلها وتعيدها إليه وكانت من أهل الفضل والخير، فأتته في هذه المرة وكان معها بعض الكعك يتقوت به، وأخذت قميصه تغسله له فوجدت فيه أثر الاحتلام فقالت له: يا ولدي إني أخاف عليك من أهل هذه البلد، فإن كنت في طاعتي فسافر معي لأزوجك في بلدي وتقعد عندي، استمع ((عليّ)) لأمِّه في أدب، ثم دخل فشاور صديقه الحميم ((زكريا)) في ذلك الأمر، فقال له الصديق الوفيّ: استخر ربَّك، ففكَّر عليٌّ بعض الوقت ثم قال: لا والله، لا أستخير الله في طاعة والدتي، وكان ((عليٌّ)) بارًّا بوالدته وهي امرأة قويَّة خيّرة من أصحاب العبادة والزهادة، ثم أقبل على ((زكريا)) يحدِّثه: تعلم يا زكريا! لقد مات أبي وأنا صغير فما رباني إلا أمي، فكنت أرعى للناس بهائم بالأجر وأتقوَّت، وحفظت القرآن وأنا أرعى البهائم، فكنت أكتب لوحي وآخذه في الغيط فمر بي بعض الفضلاء فقال لي: اسمع منِّي، شاوِر والدتك وسافر إلى مصر تعلم بها العلم، فشاورت أمي فسمحت لي بذلك وزوَّدتني زوَّادة آكلها في نحو أربع شهور، فلم يضبط أحد عني ساعة فراغ منذ أتيت إلى هنا، برَّ بها ورفقًا بحالها، فصارت تفتقدني إلى أن رجعت إليها، أفتراني أستخير فتحتمل استخارتي أن أجيبها أو أردَّها؟! لا والله، لا أكون مطيعًا لها بارًّا بها حتى أفعل ما تأمرني به.

سافر عليٌّ مع أمه إلى البلد وتأثر زكريَّا تأثُّرًا شديدًا بغيابه وافتقده، كان يتلمَّس أخباره بين الحين والحين، فعلم أنه هناك في القرية، قد زوَّجته أمُّه واستقرَّ به المقام في بلده ولم يعد إلى القاهرة أو الأزهر بل كان يعلِّم الفلَّاحين في قريته القرآن والعلم، وكان ((عليٌّ)) إذا سافر إلى القاهرة بعد ذلك يزور الأزهر ليستروح روائح أيامه المجيدة، ويزور زكريا ومن بقي من الطلاب هناك، ويأنس بهم بعض الوقت، وكان من حديثه يومًا أن قال لزكريا: "قطعتني أمِّي وأنا أخضر، لكن ما كان لي من طاعتها بدٌّ".

أمَّا زكريا فأقبل على العلم بعد رفيقه يشغله العلم عن التأثُّر المضرّ بفقده ووجد في العلم سلواه وفيمن بقي من إخوانه الطلاب الباقين، ولم يلبث غير قليل حتى ذاع صيته وعلا ذكره في حلقات العلم عند شيوخه وإخوانه فدرج في مراحل التعلم حتى أجازه مشايخه، وكتب له بذلك كثير منهم شهادات وإجازات مع الإطناب في المدح والثناء، وكثر عليه الخير حتى صب عليه صبًّا وطاب، للدرجة التي جمع فيها دفتر إجازات شيوخه بعد ذلك بسنين معدودة عددً ضخمًا من العلماء كلهم قد أجازه في فنه، ومنهم من طبقت شهرته الآفاق حتى بلغت الأرض بأسرها، وقد أذن له في إقراء "بعض

من مصـنفات شـيوخه" والاشـتغال بها في حياتهم، يقرؤها على صـغار الطلاب ويدرِّسـها لهم فأكرمه الله بالتصـدّي للتدريس في حياة غير واحد من شيوخه.

وكان هذا دَيدنُه، في دراسـة وتدريس، وبين تعلم وتعليم، ويختطف من بين ذلك كله أيامًا قليلة ينزل إلى ((سُـنَيْكة)) ليزور أمه والعم ربيع وأسرته، وكانوا على العهد معه، وكان بره ودعاؤه وعرفانه لهم بالخير موصـولًا.. وفي إحدى هذه المرات التي عاد فيها من البلد أسند إليه التدريس في بعض المدارس حول الأزهر وانهمك في القيام بالعمل الذي أوكل إليه فطالت مدة إقامته وغاب فترة عن عادته في زيارة أمِّه حتى اشتد حنينه إليها ووجد في قلبه لها شوقًا عظيمًا، فقرَّر الذهاب إلى القرية في أوَّل جمعة تأتي بعد يومه، وبينا هو في الحلقة يومًا إذ جاءه بعض إخوانه فهمس إليه ببعض الكلمات، فاستأذن من شيخه وقام، فإذا صاحبه يشير إلى شخص يقف بعيدًا فذهب إليه ((زكريًّا)) وكان الرجل من تجَّار الشـرقية الذين ينزلون القاهرة في حوائجه باسـتمرار وكان يحمل له رسـالة من العم ربيع تفيده أن والدته قد توفيت رحمها الله منذ يومين ودفنت وأنها قد أوصـته بالاستمرار في العلم والاجتهاد في العمل، وفي نهاية الرسـالة عزاه العم ربيع ودعاه إلى النزول حتى ينظر في شئونه بعد أمِّه ماذا سيفعل؟

غيمة عابرة:

في يوم الجمعة انطلق زكريًّا إلى القرية بعدما رتب أموره في القاهرة، وما إن وصل إلى القرية وكان في أول النهار حتى بدأ بالمقابر فزار والدته وصلى عليها ثم زار والده وبقي هناك يدعو لهما فترة طويلة، وكان أهل القرية قد رأوه وأخبروا ((العم ربيع)) بوجهته نحو المقابر فذهب يلتمسه فوجده عند قبر أبيه، قد جلس باكيًا رافعًا يديه يدعو، فانتظر إلى جواره وأحس به ((زكريا)) فلما قضى دعاءه التفت إليه فاحتضنه ((العم ربيع)) وواساه في فقد والدته ثم اصطحبه إلى بيته وهناك تناولا طعام الفطور، وتداولا الكلام، وفوجئ الشيخ ربيع بزكريا ينتهي إلى قرار غريب للغاية، لقد قرر أن لا يعود إلى القاهرة مرة أخرى وأن يبقى في القرية، كان الأمر مفاجئًا ومحزنًا للشيخ ربيع للغاية لكنه حمل الكلام بمحمل وقته وحاله ولم يشأ أن يناقش ((زكريا)) في ذلك القرار بل أجله إلى وقت يكون أنسب وتكون غمامة الحزن قد انقشعت عن قلبه.

نهض زكريا يستأذن للذهاب للراحة بعض الوقت في بيته فعرفه العم ربيع بأنه نقل ((حيواناتهم)) إلى بيته من يوم وفاة والدته وأغلق الدار وكانت زوجه قد ذهبت إلى هناك خلال اليومين الماضيين فقامت على تنظيف البيت تحسبًا لمجيئه فيجده نظيفًا.

لمعت عينا ربيع بالشكر والمتنان لهذين الزوجين الكريمين، وبادرت الكلمات تخرج من فمه عطرة شاكرة جميلهما، فقاطعه العم ربيع وقال: نحن أهل يا زكريا، اذهب الساعة فنم ونلتقي في الصلاة الظهر بمشيئة الله تعالى.

في الصلاة اجتمع الناس على ((زكريا)) يعزونه ويواسونه، وبعد العصر أتت وفود أهل القرية وما حولها إلى بيته ومضت ثلاثة أيام وهو على هذه الحال، لا يكاد يفرغ من المعزين إلا وقت الصلوات ووقت النوم في آخر الليل.. حتى خفَّت الأقدام في اليوم الرابع وانقطعت في اليوم الخامس وبقي ((زكريا)) على حاله بين البيت والمسجد، فلما رأى الشيخ ربيع حاله جمع أصدقاءه الأقدمين وأهل الرغبة في العلم وطلبوا من الشيخ ((زكريا)) أن يشرح لهم بعض كتب شيخه شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني وصار مجلسهم ينعقد كلَّ يوم، وكانت تلك حيلة من ((الشيخ ربيع)) ليخرج زكريا بها من حزنه وقد كان ما توقعه، مما تيسَّر معه بعد أيام أن يفاتحه في أمر السفر، وقد لقي من ((زكريا)) إعراضًا عن الفكرة لكنه كان دون إعراضه الأول فشجعه ذلك على المحاولة معه مرات حتى لان له ((زكريا)) وأذعن وفي النهاية جلسوا يرتبون الأوراق، وكيف تسير الشئون هنا وهناك، اقترح العم ربيع على ((زكريا)) أن يترك

الحيوانات لدى بعض الفلاحين الأمناء على أن تكون له ألبانها ونصف نتاجها في مقابل طعامها ورعايتها وأن يؤجر الأرض لهذا الفلاح أو غيره ثم يُجمع حاصل هذا وهذا كل عام مثلًا فيأتي زكريا من القاهرة للزيارة لأخذه وينفق منها على مشواره، ثم قال: هذا يا ((زكريا)) خير لك الآن؛ أن تدَّخرهما، فإذا مضى بك بعض الوقت احتجت إلى زوجة ومسكن في القاهرة فبعت ما هنا واشتريت هناك وأنفقت الباقي على زواجك ومقصدك.

وافق ((زكريا)) شيخه في جميع ما قال، وتوجه إلى الله تعالى بالشكر على ما منحه من النعم، فلئن أخذ منه أبوين فقد عوضه منهما آخرين، وفاضت كلمات الثناء منه على الشيخ وزوجه، فقال الشيخ ربيع وهو يبتسم: طالما ذكرتها فهي الآن تنتظرنا على الغداء وقد كانت تدعو الله تعالى أن أوفق في الكلام معك وأصل إلى انتزاع القبول منك لتسرع بالسفر إلى القاهرة لتدرك دروسك فالأيام تتصرَّم سريعًا من بين يديك، ثم نهضا إلى البيت وهناك تناولا الغداء وسعدت زوج الشيخ ربيع لما علمت بقراره وبدأت على الفور بتجهيز زوادة السفر لولدها ((زكريا)) إلى القاهرة.

قضى ((زكريا)) و ((العم ربيع)) بقية يومهما في ترتيب الشئون التي اتفقا عليها، وقد تم لها الأمر كله على أفضل ما ابتغياه.

وفي الصباح ارتحل زكريا إلى القاهرة من جديد، وهو يفكر في مستقبل أيامه دون السند الذي كان يلجئ إليه ظهره على البعد، ودون الرفيق الذي كان يؤنسه في الغربة، لكنه بعد تفكير حمد الله تعالى على أن ألهمه العودة إلى حلقات العلم في القاهرة لدى شيوخه ففيها أعظم السلوى عن كل ذلك، ترى لو كان انقطع عن القاهرة إلى أي وضع كانت حاله ستؤول؟

شمس الدنيا:

وصـل زكريا إلى القاهرة وواصـل ما كان فيه من جدٍّ واجتهاد في العلم، لكن سـعيه هذه المرة كان في همة ودأب مضاعفَين عن المرة السابقة، لقد كَانَ في النهاية من الانهماك في طلب العِلْم، لا يجعل لنفسه متنفساً سواه، حَتَّى أشغله عَنْ مأكله ومشربه.. ولم يعرف عنه أنه عكف عَلى الاشتغال بشيء من أمور الدنيا وَمع هذا كله لَمْ يعلق قلبه بأحد من الخلق، فهل كان ((زكريا)) يعزم على تحقيق أمنية والدته سـريعًا برًّا بها رحمها الله وتعويضًـا لنفسـه عما فاته من الصـحبة لها؟! لعل ذلك كان في نيته، ولأجل هذا قد أصـبح في وقت قصـير بعد رجوعه من المؤهلين للانضـمام إلى ركب العُلَمَاء، فشقَّ طريقه إلى التدريس برعاية شيوخه الذين أحبوه وقدموه لما عرفوه فيه من مؤهلات ترفعه إلى تلك المكانة وتعده لما فوقها، لا سـيما وهو مضـرب المثل بينهم – كما هو كذلك بين إخوانه الطلاب- في حسـن الخلق، والتحلي بمكارم الأخلاق وفضائلها، لا يدع باباً إليها إلاَّ دخله، فاجتمعت له بذلك ثلاثة من المعالي قل أن تجتمع إلا في مبرّز:

- جمع من أنواع العلوم والمعارف بإتقان.

- حوى مكارم الأخلاق وحسن السمت والتؤدة في طبع لا تطبع.

- أخذ عَنْ أكابر العلماء وجمع عنهم مَا لَمْ يجمعه غيره ويكفي أن نعلم أن شيوخه كانوا زيادة على (150) شيخًا.

وكما كتب الله تَعَالَى للحبيب ((زكريا)) القبول بَيْن العلماء والشـيوخ كتب له القبول بين الناس والتلاميذ، فأقبل عليه الناس من كل مكان يتعلمون على يديه ويقرؤون العلوم عليه.

يقول الراوي:

استمرت الأيام بالشيخ زكريا يسعى فيها وتسعى به حتى بلغ أرفع مكانة يصل إليها عالم في مصر المحروسة لا في القاهرة فحسب، فقعد للتدريس في مسجد الإمام الشافعي، وجلس في مجلس القضاء ثمَّ صار وزيرًا للعدل، وكان رأس الشافعية في زمانه ومفتي مصر على مذهبه، وقصده الطلاب من أقاصي الأرض بالرحلة من الحجاز والشام وما وراءهما، إذ كان بارعاً في سائر العلوم الشرعية وآلاتها حديثاً وتفسيراً وفقهاً وأصولاً وعربية وأدباً ومعقولاً.. وقد وظَّف الْقَاضِي زكريا الأنصاري معرفته العلمية في التأليف إِلَى جانب التدريس، وخلال عمره الذي عاشه استطاع أن يترك لنا جملة كبيرة من المصنفات في جميع الفنون من اللغة إِلَى المنطق، ومن الكلام إِلَى الْحَدِيْث، ومن الفقه إِلَى القراءات، ومن التصوف إِلَى التفسير، ومن أصول الفقه إِلَى الفرائض.

وفي الناحية العائلية: تزوَّج وصار له أولاد وأحفاد، وأقبلت الدنيا عليه إقبالًا عظيمًا، فصرفها في الفقراء والمحاويج ومن مثله قاسى مرارة الحرمان وعاش مصاعبها؛ فلهذا كَانَ يعرف لوعة المحرومين وضيق ذات يد المعدمين، فكان كَثِير البرِّ بطلبته وتفقد أحوالهم وكذا الفقراء من العامة.

وقد عاش ((العم ربيع)) وزوجه حتى رأيا مَا حازه ربيبهما ومكفولهما ((زكريا)) من المجد والفخار، وزاراه في القاهرة مرارًا فكان يبالغ في إكرامهما وتوقيرهما ويذكرهم بالفضل والعرفان أمام من يكون عنده، وربما مازحته زوجة الشَّـيْخ ربيع التي ربَّتْهُ فيتلطف معها ويجلها ويقدرها ويبالغ في توقيرها، وكذلك كان يكرم كل من يزوره من قريته ويقضي حوائجهم.. وتلك والله من دلائل أصله الكريم وانتفاعه بما تعلمه.

***

حدثت هذه القصة في الفترة بين عامَي (823 هـــ و 926 هـــ)، في قرية سُنَيكة، بمركز أبي حمّاد من قرى محافظة الشرقية، بمصر.. وبلغ عمره (100) عام، رحم الله كل من ورد اسمه فيها وبلغهم المنازل العالية في جنة الفردوس بصحبة خير النبيين صلى الله عليه وسلم.

تمت

بحمد الله تعالى